المحاضرة الثالثة

تربيـــــــة الإســـــــــــــلام

ماذا استفاد العـــــالم ببعثتـــــه(صلى الله عليه وسلم) ؟

لا تُعرف قيمة النعمة إلاّ بفقدها؛ فإذا أردت أن تعرف نعمة الله عليك فأغمض عينيك. ولطالما خاف عمر رضي الله عنه أن ينشأ جيل لم يشهد ظلام الجاهلية، وبذلك فلن يعرف قيمة الإسلام حق المعرفة....

ويطيب لنا أن نضرب عدة أمثلة من واقع الجاهلية، ونقارنها بما أصبح عليه الحال بعد مجيء الإسلام، حتى يتضح لنا الفرق الهائل فندرك بذلك نعمة الإسلام، ويظهر لنا بذلك نوع من أنواع الإعجاز لهذا الدين؛ ألا وهي معجزة التربية الإسلامية أو معجزة القدرة على التغيير، أو سمّها ما شئت طالما أنك عرفت المقصود بذلك.

<u>المثـــــال الأول</u> :

يقول الشاعر العربي في مجال الفخر :

ونشرب إن وردنا الماء عذباً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

إذا فالشاعر في الجاهلية كان يفتخر بأن قومه إذا ما وردوا الماء، فإن الآخرين يرجعون إلى الوراء؛ خوفاً منهم ووجلاً من شرهم؛ أما هم فإنهم يشربون ثم يتركون الماء مكدراً لغيرهم.

فهو يفتخر دون غضاضة بأخذ دور الآخرين أولاً، وبالقذارة ثانياً، وبالمقدرة على إيذاء الآخرين ثالثاً.

و حين جاء الإسلام؛ وفي إحدى المعارك التي خاضها دفاعاً عن العدل"اليرموك"، وعن حقوق الآخرين، كان ثلاثة جرحى يرقدون على فراش الشهادة في سبيل الله، هنا جاء من يخدمهم أو يزورهم ودخل الزائر: فأراد أن يسقي ابن عمه الجريح جرعة ماء ([1]) ولكنهما سمعا رجلاً آخر في الثكنة يقول ماء ماء، ...

فما كان من الجريح الأول إلا أن رفض أن يشرب و أشار إلى ابن عمه لكي يسقي الجريح الثاني قبله، وعندما وصل إلى الجريح الثاني إذا بجريح آخر ينادي ماء ماء ... فأشار الجريح الثاني إلى الساقي بأن يذهب إلى الثالث، فلما وصل الساقي إلى الثالث

---

[1]) في لحظات النزاع الصعبة يحاول الشيطان أن يراود المسلم على عقيدته، كأن يهدده بقطع الماء عنه. خاصة وأن الطب يوصي بعدم شرب الماء الكثير في تلك اللحظات، بل وبمنعه من الشرب بعد إجراء العمليات الجراحية. ومن محاولات الشيطان أن يأتي له متمثلا بصورة والده ووالدته وأصدقائه ومحبيه فيحثه على ترك الإسلام وإتباع الديانات الأخرى ولكن ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران:85)

وجده قد توفي، فرجع إلى الثاني فوجده كذلك، ورجع إلى ابن عمه فوجده قد توفي أيضاً...شهداء في سبيل الله .

إلا ترى أخي الكريم إلى عظم الفرق بين من يفخر بشرب ماء الآخرين وبين من يفارق الحياة الدنيا وهو يحاول إسعاد الآخرين ولو بشربة ماء.

ومثـــال آخـــر:

كانت العرب يغير بعضهم على بعض فيقتل بعضهم بعضاً ويسلبون نساءهم وأطفالهم في عملية سلب ونهب: تُزهق فيها الأنفس، وتنتهك فيها الأعراض، وتسلب فيها الأموال، وتحل بهم المصائب، وتسفر العملية عن إزعاج وضياع وتشريد، وثارات لا نهاية لها.

وجاء الإسلام ليعلهم تقوى الله عز وجل وعدم جواز أكل الحرام، بل لقد دعا الإسلام اتباعه إلى إعطاء الغير والإحسان إلى الناس. وبهذه التربية تحدث أمثلة كثيرة من الإيثار؛ فها هو علي وفاطمة رضي الله عنهما يصومان ثلاثة أيام شكراً لله تعالى على نعمة شفاء ابنهما، وفي اليوم الأول يضعان الطعام أمامهما- وهو عبارة عن قرص خبز الشعير- فيأتي مسكين يدق الباب، ويعطى الطعام للمسكين، ويبيتان طاويين جوعاً. وفي اليوم الثاني يأتي يتيم يسأل فيعطيانه الطعام ويبيتان طاويين، وفي اليوم الثالث يأتي أسير فيعطيانه الطعام، وينزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾(الإنسان:8)،

فانظر- رعاك الله- إلى الفرق بين قوم همهم السلب والنهب؛ وقوم يصبح أحدهم يخاف من الله تعالى ويتقرب إليه بالصدقة (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار))(الترمذي/كتاب الجمعة/614) كل ذلك ابتغاء لمرضاة الله تعالى وهم بأشد الحاجة إلى ذلك الطعام ...مصداق قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الحشر9.

ومثـــال ثالـــث:

يأتي رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعى حاله قبل الإسلام وكيف أنه وأد ابنته وهي حية، وكيف أنه كان يحفر لها الحفرة لكي يدفنها، فإذا بها تنكت التراب عن وجهه، ثم أصر بكل عناد على دفنها وهي حية .....

فلما تندت القلوب بالإيمان أصبح عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لو أنّ دابة تعثرت على شاطئ دجلة لخشيت أن يسألني الله تعالى عنها لِم لَمْ تُعبد لها الطريق يا عمر ....

مثـــال رابـــع:

يقول الشاعر العربي في الجاهلية مفتخراً:

إذا بلغ الفطام لنا صبيا تخر له الجبابر ساجدينا

ولا أدري هل كان يعلم ذلك الشاعر أن بلاد العرب كانت في الأغلب تابعة أما للفرس و إما للروم.

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة ان كنت تدري فالمصيبة أعظم

ولما جاء الإسلام وإذا بالصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه ولشدة الغضب تخرج على لسانه كلمة (يا ابن السوداء) يوجهها إلى سيدنا بلال رضي الله عنه.

وعاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقال له : ((إنك امرئ فيك جاهلية))(– البخاري30)، فما كان منه إلا أن وضع خده على الأرض وحلف على بلال أن يضع قدمه على خده؛ ذلك لأنّ تعاليم الإسلام تنص على أن ((لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى)) (المعجم الكبير 16).

المثـــال الخـــامس:

حينما فقدت الخنساء أخاها في الجاهلية فقد رثته بقصائد من الشعر، وما وصلنا منه هو ديوان كامل من الشعر في رثاء أخيها، وبلغ الحزن عليه حد اليأس، ومن أحد أشعارها تقول فيه:

يذكرني طلوع الشمس صخراً واذكره لكل غروب شمس...

حتى بلغ الأمر بها أن قالت في يأس وجزع :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ثم جاء الإسلام فأسلمت الخنساء، وجاءت معركة القادسية فقامت تخطب بأولادها الأربعة: تحثهم على الجهاد في سبيل الله، والاستبسال في القتال في خطبتها المشهورة التي في مقدمتها : والله إن أباكم واحداً كما أن أمكم واحدة ...

وحين جاء المساء وإذا بها تبشر باستشهاد أولادها الأربعة، وهم في مقدمة الجند ...

وكان القياس على حال الجاهلية أن ترثيهم بأربعة دواوين من الشعر أو بديوان واحد على الأقل، ولكنها في الإسلام قالت أربع كلمات " الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم "

كلمات لا تنم عن جزع الجاهلية ولكن عن عظيم الصبر في الإسلام، ولا عن القنوط بل عن الاحتساب لوجه الله تعالى، و تذكّر ما عنده من عظيم الأجر والثواب للمجاهدين والصابرين ...

المثـــال الســـادس:

كانت الخمرة تعشعش في عقول العرب وقلوبهم وبطونهم وبيوتهم، حتى إن عمود القصيدة – بدايتها – كان إما التغني بالخمر، أو بالنساء، أو بالناقة في قطعها في المسافات البعيدة ....

إذاً، فهكذا كانت الخمر تتواجد في حياتهم رغم أنها – أم الخبائث– فكيف استطاع الإسلام أن يقتلع هذه العادة السيئة من حياتهم ؟

لقد نزلت الآية الأولى:﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾(النحل 67)

ويدرك العربي بفطرته عند سماع هذه الآية أن السكر هو شيء، والرزق الحسن شيء آخر؛ إذاً فالسكر ليس حسناً...لكن إلى أي مدى يأخذ هذا التحذير ؟!

هذه الآية جعلت بعض الناس يتساءل ما حكم الخمر؟!.

وتنزل الآية الثانية بعد وقت طويل نسبياً ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة:219)

والنفع هنا بمعنى أن التاجر قد يربح من عملية البيع والشراء، وهذه الهزة للضمير هي أقوى وأشد، ذلك أنك لو قرأت الآية التي قبلها والآية التي بعدها لوجدتهما تعرضان إلى أن المسلمين إنما يتسابقون في الدنيا لمرضاة الله تعالى؛ فكيف لهم أن يكسبوا إثماً مقابل منافع البيع والشراء، أو ليس الرازق هو الله تعالى ؟!

وييسر الله تعالى حادثة يتبين فيها أن الذي يريد أن يخاطب الله عز وجل يجب أن يكون بكامل وعيه وإدراكه؛ أما أن يقف ليقرأ سورة "الكافرون" فيصل به السكر إلى أن يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فهذا لا يصح مطلقاً، وإذا بالآيات تتنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(النساء:43)

وحينما كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يحبون الصلاة أيما حب، وكانوا يحافظون عليها بل وعلى التكبيرة الأولى محافظة تامة، وفي هذه الحال خيّرهم الله تعالى بين الخمر وبين الصلاة؛ فاختاروا بكل بساطة: الصلاة !.

وهذا يستلزم أن الذي يريد أن يسكر في الضحى أن يمتنع لئلا تفوته صلاة الظهر، وهكذا قل في العصر والمغرب إلى ما بعد العشاء، وهذا ما يسمى " قطع الإدمان"

ثم وقعت حادثة دس أعداء الإسلام فيها أنوفهم وكادوا للإسلام، فما كان إلا أن رد ﷻ تعالى كيدهم في نحرهم، وحرم على أمة الإسلام كل ما من شأنه أن يوقع العداوة والبغضاء بين صفوف أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)

فقد كان جماعة من الأوس والخزرج ألف الإسلام بين قلوبهم بعدما كانت داحس والغبراء، وما شاكلها من حروب تنشأ لأجل ناقة جرباء، أو ما شاكلها من توافه الأسباب. وبعد هذه النعمة الكبرى من الدين و الأخوة الإسلامية.

فقد جلسوا مرة لشرب الخمر، فمر بهم يهودي، فاستغل ذهاب عقولهم بالخمر، فذكرهم بأيام الجاهلية واقتتالهم فيها؛ فما كان منهم في حالة السكر هذه إلا أن تنادوا إلى السلاح، فأنزل الله سبحانه وتعالى بعدها قوله:

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة:90)

وكان الجواب من فم السكارى قبل غيرهم انتهينا يا رب انتهينا،

ذلك أن العربي بفطرته قد أدرك ما لهذا الكلام من معنى أكيد في تحريم هذا الشراب المحبب إلى النفس الأمارة والشيطان الخبيث، المبعد عن الاخوة وذكر الله والصلاة ... وان ذلك الشراب هو من إرادة الشيطان وعمله...

لقد أدركوا أنه يجب الابتعاد عن كل ما يقرب إلى الخمر وطرق السكر أياً كان ... بعد أن طرق مسامعهم أن في الآية أكثر من 14 أربعة عشر تحريماً لا تحريماً واحداً...

ويأتي خبراء التغذية في أمريكا ليدرسوا كل ما يستطيعون، ويجربوا كل ما خطر ببالهم – حتى جربوا وضع الملح على البطيخ– فما كان من أبحاثهم إلا أن أثبتت الفائدة كل الفائدة: فيما ذكره القرآن على سبيل المدح، كالعسل والتمر واللبن والزيتون والرمان ... الخ ووجدوا أن الضرر كل الضرر فيما حرمه الإسلام.

(راجع إن شئت كتابي إسعافات أولية في الصيدلية النبوية)

وأول ذلك هو الخمر : فهي مادة تضر بالإنسان من مفرق رأسه حتى أخمص قدمه (اقرأ إن شئت كتابي بر الوالدين بعد الزواج .فصل خطورة الخمر) وتضر مع البدن الروح والعقل والأسرة، حتى إن قتلى ليلة عيد الميلاد في حوادث الطرق في المكسيك وحدها كان مائة شخص في إحدى السنين، ويصدر برلمان ذلك البلد (أمريكا :1915–

1933) تشريعاً يدوم 18 ثمانية عشر عاماً ولكنه لا يلبث أن يتحطم ذلك التشريع؛ لأنه كان ينقصه ما ينقصه، بحيث بقيت المعجزة للإسلام في التغيير .

المثـــال الســـابع:

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يتندر من فعله هو في الجاهلية، كيف أنه استحسن أن يصنع صنماً من تمر – إذ أنه لم يجد حجراً من حوله يعجبه–وفي اليوم التالي جاع ولما لم يجد طعاماً فما كان منه إلا أن عدى على ذلك الصنم الذي عبده فأكله ...

ولما جاء الإسلام، وفي غزوة ذات الرقاع، وحينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم قافلين، جاءوا إلى شعب وأرادوا المبيت فيه –والشعب هو المكان السهل بين جبلين – وهذا من حكمة القائد الذي يريد أن يستفيد من طبيعة الأرض بحيث لا يحتاج إلا إلى خفارة واحدة .

وندب الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم فقال: من يحرسنا هذه الليلة، فقام رجلان فتبرعا بالحراسة، فقال الأول للآخر : أتكفيني أول الليل أم آخره، فقال : بل أوله، –ولعله أراد بذلك أن يقوم الليل كله ويترك الثاني نائماً –

وفي أثناء الحراسة قام يصلي، فجاء رجل من الأعداء– كان يتتبع أثر الجيش– فرمى المصلي بسهم وقع في خاصرته اليمنى، ولكنه استمر في الصلاة. وظن العدو أنه لم يصبه، فرماه الثانية فوقع السهم الثاني في خاصرته اليسرى، هنا أيقض الخفير أخاه فقال له أخاه: لمَ لمْ توقظني من الرمية الأولى ؟

فقال له : والله لقد كنت اقرأ سورة من كتاب الله، أحببت أن ينقطع نفسي ولا أقطعها، ولولا أني تذكرت أني أحمي ثغراً أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراسته ما قطعتها .

فهذا المثال يبين لك كيف أصبح الالتزام بالدين والحب لله والطاعة لرسوله؛ ثم هو يبين بوضوح أنهم لما خُيروا بين صلاة الجماعة وشرب الخمر فإنما اختاروا الصلاة .

المثـــال الثـــامن:

فحين أراد العرب أن يبنوا كعبتهم، فإنهم قد أتوا بغلام رومي لكي يقوم بذلك، وحين جاء الإسلام فإذا بالزخرفة خاصة للمساجد تثير إعجاب الدنيا، وحتى عصرنا هذا، فهاهي المياه تخرج من أفواه ثمانية أسود بطريقة لم يستطع أحدا من مهندسي العالم حتى اليوم أن يعرفوا سرها، فضلا عن أن يصنعوا مثلها .

وعندما جاء المهندسون ليصلحوا ما خربوا ما بناه المسلمون لم يجدوا لذلك سبيلا وهنا قال قائلهم: انظروا إلى بناء المسلمين ما أروعه، وكيف أصبح مصدر رزق لنا بواسطة السياحة! فكيف لو بحثنا عن أخلاقهم وعقيدتهم.؟!

المثـــال التـــاسع

وهو مثال طويل جداً متعدد الجوانب، ولكنه يشير بوضوح إلى الذي أردناه من هذا البحث، وهو إظهار نعمة الإسلام على العرب خاصة، وعلى العالم عامة.

فلقد حصل خلاف في اليمن بين زعيمين عربيين؛ قام على أثره الزعيم المهزوم بزيارة لقيادة الروم، ليستجدي فيها الاستعمار لبلاده، ولكن زعيم الروم اعتذر لكونه مشغولاً.

ولكن نظراً لشدة الاستجداء والتمرغ على الأعتاب، قام زعيم الروم بإرسال رسالة يحملها ذلك العربي "الأبي" إلى ملك الحبشة وفي هذه الرسالة " جيَّر " فيها الاستجداء لصالح ملك الحبشة، ووافق ملك الحبشة على طلب ذلك العربي " الأبي " باحتلال بلاده، لكي يصبح الزعيم الأوحد، والذنب الفرد للمستعمرين.

واستتب الأمر بالأحباش في بلاد اليمن ولشدة الاستتباب حصل بين القادة اختلاف – راجع مسرحية الضيف الثقيل – فانقسم جيش الأحباش إلى قسمين وقبل الاقتتال قال أبرهة لإرياط : لماذا يقتتل جيشا الحبشة ونضعف أمام العرب ؟ اخرج إلى بمفردك واخرج إليك بمفردي .

فأجابه القائد الحبشي إرياط لذلك بشرط : أن يكون مع كل قائد مساعد.

وفي المعركة ضرب ارياط أبرهة على وجهه بالسيف فجرح شفته وكاد يقتله – فسمي بعد ذلك أبرهة الأشرم – فقام مساعد أبرهة بقتل ارياط، وانتهت المعركة بمقتل رجل واحد وجرح آخر فقط.

وهنا قام ابرهة ببناء كنيسة " القُلِّيس" شكراً لله تعالى – حسب زعمه – وكما هو حال كل مستعمر: لا يكتفي باستعمار البلاد واغتصاب الأموال وخيرات الشعوب، ولكنه يهدف أولاً وأخرا إلى مد يده إلى العقيدة. ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: 217)

أنه أراد بزخرفتها وتزيينها وإنشاء الحدائق الغناء حولها إلى صرف حج الناس إليها بدلاً من الكعبة. وفعلاً فقد توجه بعض القريبين منها إلى الحج إليها متذرعين بأنها " بيت الله "، أو باسم " وحدة الأديان "، أو باسم " كل من على دينه الله يعنيه "، أو باسم ....

وما درى أولئك المنافقون أن الحج لله لا يجوز إلا بزيارة الكعبة، وأن التعبد لا يصلح إلا بالإسلام، وبأن الأديان كلها مجمعة على أنه لا يصلح عند الله إلا دين واحد، وبأنّ الذي ساقهم إلى القليس بدل الكعبة إنما هو مشاهدة الحدائق والمغنيات والراقصات وتخفيف النفقات والفوز بلقب "حاج".... لا الفوز بمرضاة الله عز وجل ....

وهنا ثارت ثائرة بعض العرب ممن لم تجدِ بهم وسائل الإعلام في دولة ابرهة الأشرم نفعاً، فجاء إلى كنيسة القليس فقعد فيها، أي قضى حاجته، أي بال وتغوط أي ....

سمه جاهل، متعصب، إرهابي، رجعي .... سمّه ما شئت، أنا لم آمره بذلك، لكن هذا ما حصل .... وهنا حلف أبرهة أنه سيهدم الكعبة.

أرأيتم كيف كشر الوغد عن أنيابه ؟ لو قال: سأقتل ذلك الأعرابي لما غضبنا، لكنه أوضح مكان الحقد: أنه على الكعبة المشرفة التي لم تبل ولم تتغوط !.

وتوجه الجيش العرمرم، صاحب السلاح الأفخم – الفيل – ذلك السلاح الذي لم يمتلكه العرب يوماً ما، وإنما هابوا منه أشد هيبة، وأوقع في قلوبهم هلعاً أكثر مما هو واقع الحال.

والنقطة الأولى هنا:ماذا فعل المسلمون في الفيل عندما حاربوا الفرس بعد مجيء الإسلام؟

إن الإسلام قد أمرهم أول أمر بقوله تعالى : "اقرأ " فكانت أمة مثقفة وأتاهم الله تعالى الحكمة ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269) فعلموا أن الفيل يخاف من النمر: فألبسوا الجمال ثياباً مبرقعة، تظهر من بعيد كالنمور، وعلموا خيول المسلمين لعدة مرات على عدم الخوف من الجمل المبرقع، وعندما اقتربوا بالجمال المبرقعة من جيوش الفرس في العراق وما بعدها، هربت الخيول المحيطة بالفيلة وبقى الفيل بلا حماية، فضربوا الفيل الأكبر لأنه قائد الفيلة الذي إذا ولىَّ، ولت بقية الفيلة، وضربوه على المكان الحساس ألا وهو خرطومه فولى هارباً.

وعندما استدار ضربوا بطانة السرج الذي على الفيل فانقطع؛ فوقع من على ظهر الفيل من شدة الاستدارة، وللرعب الذي حصل فقد داست الفيلة على الناس، فأشدهم حيلة من استطاع أن ينجو بنفسه ...

إذاً، أ رأيت إلى كلمة اقرأ كيف فعلت.

(ونعود إلى القصة) لنكمل العبر: قلنا توجه أبرهة الأشرم لهدم بيت الله وهو يزعم أنه يريد أن يشكر الله فقابل أول قائد قبيلة فشرد قبيلته وأوقعه أسيراً وهنا صار قائد القبيلة الأسير يتوسط عند سائس الفيل لكي يبقيه على قيد الحياة .

والنقطة الثانية هنا: أن خبيب بن عدي (رضي الله عنه) عندما سألوه وهو على خشبة الموت: هل تحب أن تكون جالساً في عيالك ومحمداً مكانك تضرب عنقه؟ فأجاب : دون أن يترحم الباطل، ودون أن يزيغ عن الحق، بل وأجابهم جواباً يغيظهم قائلاً:

والله ما أحب أن أكون بين أهلي وأولادي مقابل شوكة يشاك بها محمداً صلى الله عليه وسلم ... أقول ألم يقل الشاعر العربي :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

أ رأيت إلى استسلام القائد حفاظاً على حياته، وصمود ذلك المسلم إظهارا لمبادئه ولو كلفه ذلك حياته.

(نعود إلى القصة) أبرهة ذهب إلى قبيلة أخرى فقاتلها فشردها وأمسك بقائدها فلما وقع قائدها أسيراً ما كان منه إلا أن رجاه أن يبقي على حياته مقابل أن يدله على الكعبة.

والنقطة الثالثة: ترون فيها كيف تحول المدافع إلى خائن، بينما بلال رضي الله عنه ذلك العبد الحبشي الذي لا يملك من قوة إلا أن يقول تحت وطأة الصخرة والحر والضرب .... أحد .... أحد([2]) ...فيقول له معذبه والله لو أعلم أحداً يعذب أحداً أشد مما عذبتك به لعذبتك، فيقول : والله لو أعلم كلمة تغيظك اكثر من هذه الكلمة لقلتها لك. ولو سألنا قائد القبيلتين لماذا لم تتحدا لحرب العدو المشترك لقال كل واحد منهم وأين تذهب زعامتنا ؟....

وهنا نقطة رابعة: فلو أننا تذكرنا سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه كيف أنه وفي قمة انتصاراته وحينما عزله عمر (رضي الله عنه) تنحى عن قيادة الجيش دون خيانة ولا انهزام ولا تردد، بل كان قائداً علم الدنيا فنون التخطيط والشجاعة والشهامة والخبرة، بفنون الحرب، لم يتفاخر بأنه دوخ الدنيا، ولم يشق عصى الطاعة، ولم يقل: يا ناس انظروا ماذا فعل عمر بي؟! ولم يعرض على الجيش أو قادته أنه ينشق أو يتظلم، ذلك لأنه كان يقاتل لله تعالى وهو قائد، وسيقاتل لله تعالى وهو جندي مطيع ...

---

[2] لعل بعض الناس يقول: لماذا لم يقل لا إله إلا الله محمد رسول الله، نقول له أن الصخرة لم تعطه مجالاً للتنفس إلا للفظ واحد ... فاختار لك اللفظ المختصر المؤلم للكفرة؛ وهنا أود أن أذكر أن كلمتي الشهادة جاءتنا على طبق من ذهب فهل أدينا شكرها ؟؟ وبعض شكرها يكون بالدعوة لها، وإلا فسوف نسئل عنها. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلونَ﴾ (الزخرف:44)

فلا نامت أعين الجبناء، ولا استقرت نفوس طالبي الزعامات ...

إنه الفرق الواضح بين قائد عربي لا يعرف إلا الدنيا وزعاماتها، فإذا ذهبت عنه فإنه قد يسلم نفسه وسلاحه وأمنه للعدو... وبين قائد مسلم يبتغي من كل شيء مرضاة الله عز وجل ... ورفع شأن دينه وأمة نبيه محمد ﷺ مهما كانت الظروف والأحوال.

(نعود إلى قصة أبرهة) ثم يسير الجيش إلى الطائف وهنا ... يتبرأ أهل الطائف من أن يكون بيت الله عندهم- وكأن الكعبة لا تعنيهم- بل ويتبرعون (بابي رغال) لكي يدل جيش العدو على مكة المكرمة لأن فيها الكعبة المنشودة

- وهنا أترك الموضوع بلا تعليق -

ويتقدم الجيش إلى الكعبة وقد هرب أولئك الذين كانوا يدعون حمايتها ويأخذون على ذلك الإتاوات .... الخ ....

والنقطة الخامسة هنا: كيف تحولت مكة والمدينة والطائف بالإسلام إلى دولة قوية حاربت اليمن وفارس والروم؛ بعد أن كانت تُغزى في عقر دارها ...

فمن المعلوم عسكرياً: أن المهاجم يجب أن يكن ثلاثة أضعاف المدافع، فكيف تحولوا من مدافعين غير قادرين على الدفاع أمام جيش أبرهة إلى مهاجمين لليمن قادرين على تحقيق النصر والهداية معاً ؟

ثم ليس على جبهة اليمن فقط بل إضافة إلى جبهة الروم والفرس ثم جبهة مصر، في أقل من نصف قرن من مبعث الهادي محمد صلى الله عليه وسلم ... فتكون قوة مكة والمدينة والطائف قد ارتفعت 3×3×3=27 ضعفاً بالإسلام.... مصداق قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (لأنفال:65)

وهنا أود أن أختم حديثي بمقولة عمر المشهورة التي أوضحت بجلاء سبب ذلك العز ومصدر تلك الرفعة بقوله ...

نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله ...

والحمد لله رب العالمين .

وأنا الآن أرحب بأسئلتكم ومشاركاتكم

س1: ما هي وجهة نظر عمر(رضي الله عنه) في عزل خالد بن الوليد (رضي الله عنه)؟

ج1:خالد بن الوليد رضي الله عنه دوّخ الدنيا بفنونه الحربية، فلقد كان مسئولا عن أن يحقق أفضل الانتصارات في أسرع الأوقات وأقل الخسائر، وهذا ما حصل من خالد رضي الله عنه تماماً، بحيث لم يستطيع أحد في العالم من قادة الدنيا أن يفعل فعله إذ أنه انتصر في 42 اثنتين وأربعين معركة ولم يخسر واحدة منها، والأهم من ذلك: أنه حارب أربع مدارس عسكرية لكل مدرسة أسلوبها وتنظيمها وتكتيكها الحربي.

ولكن عمر (رضي الله عنه) مسؤول عن الجيش أيضا. ومسؤول أيضاً عن الوطن وعن الشعب، والأهم من ذلك فهو مسؤول عن الحفاظ على العقدية .... فمسؤوليته هي أعم وأشمل .

فلقد أصبح بعض الجند يقولون: تنتصر مع خالد فخشي عمر ﷺ أن يدخل الشيطان مدخلاً خطيراً بحيث يقول بعضهم ننتصر بخالد وهذا كفر محض؛ لذا فلا بد من تصحيح المفاهيم؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران: 126)

وأن الله تكفل بنصر هذا الدين مع خالد وغير خالد ... (هذا بالنسبة للعقيدة)

وبما أن خالدا بشر فهو معرض للموت:﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:34) فلو مات خالد لاهتزت نفوس الجند، وهنا خشي عمر رضي الله عنه على الجند من خبال نفسي ليس هناك وقت لعلاجه في ظل الظروف العصيبة التي كانت تعيشها دولة الإسلام الفتية، فكان عزل خالد حفاظاً على الجيش ومعنوياته.

فإذا انهزم الجيش فقد ضاع الوطن، وتشتت الأمة.

ثم أن سيدنا عمر رضي الله عنه أحب أن يلبس سيدنا خالد رضي الله عنه تاج الإخلاص، خوفاً من أن يأتي بعض السفلة في آخر الزمان فيقول إنّ خالداً ربما كان يقاتل لأجل الدنيا.

وبما أن تاج الإخلاص الحق إنما يكون عن تجربة مرة، فكان العزل هو التجربة المرة، وكان امتثال خالد هو النجاح الباهر، فكان عمر هو الذي ألبس خالداً تاج الإخلاص، فرضي الله عنهما وأرضاهما ورزقنا بمن يفهم الأمور فهمهما من أن الدنيا زائلة والآخرة باقية، فيزهدون في الدنيا بما فيها مرضاة لله سبحانه وتعالى .

س2: ما الحكمة في الربط بين إقامة الصلاة وترك الخمر؟

ج2:الإنسان مخلوق في كبد، والدنيا لا تستقر معه على حال، ولإزالة هذه الهموم فقد يطغيه الشيطان ليهرب إلى الخمر؛ لأنها تُنسي الإنسان واقعه، فإذا ما صحا من سكرته عادت إليه الهموم أشد مما كانت عليه.

فالفقير يزداد بالسكر فقراً؛ لأنه أضاع المال، والمشغول يضيق الوقت عليه؛ لأن الزمان الذي كان يجب أن يفكر فيه قد ذهب بالسكر، والمختلف مع عائلته يزداد عليه الأمر سوءاً: لأنه بعد السكر يكون قد أزعج أهله وأولاده أو خرب ثيابه أو بال عليها ... الخ . فمثله مثل من يجلس في الحر تحت ظل شجرة زعرور، نعم إن شوكها يؤذيه، لكن ماذا يفعل من وهج الشمس؟

وجاء الإسلام لا ليقول له: اقطع شجرة الزعرور، ولكنه قال له: اغرس على بعد بضعة أمتار شجرات زيتون ورمان وتفاح وعنب وتين واسقها من فضل وضوءك، وبعد خمس سنوات إذا مررت عليه تجده قد قطع شجرة الزعرور لوحده دون أن تأمره؛ ذلك لأنّ ظل الشجرات الأخرى أكبر وليس لها شوك يلسعه.

وكذلك مثل الصلوات الخمس، يهرع فيها الإنسان إلى الله تعالى ليقف بين يديه بوعي وخشوع فلا حاجة له بعد ذلك إلى غياب في السكر عن الوجود.

س3: ليس في كل الأوقات نجد في الصلاة حلاوة ؟

ج3: هذا استطراد عن أصل المحاضرة، ولكن لا بأس به، انه استطراد محمود، والجواب: إن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون:1-2)

وحينما كنت شاباً قلت في نفسي كم تستغرق الصلاة من وقتي ؟

وبدقة متناهية صليت أربع ركعات سنة الظهر القبلية، ولا شد ما كانت المفاجأة لقد كانت دقيقة ونصف فقط، تعجبت كثيراً وظننت أني أخطأت فصليت أربع ركعات فرض الظهر وحدي، وكانت النتيجة قريبة من الأولى دقيقة ونصف، عندها عرفت أن الشيطان هو الذي يوهمني أنّ الصلاة طويلة، وأن الدنيا قد خربت لطول صلاتي .

وهنا صممت أن أصلي سنة الظهر الثانية أربع ركعات بكامل الخشوع، فكان الزمن أربع دقائق ونصف، فعاهدت نفسي بعدها على أن لا أصلي على عجل، وإذا كان الوقت ضيقاً جداً فإنّي أوثر أن أصلي الفرض فقط لكن على تهمل ... حتى لا تقول لي الصلاة (ضيّعك الله كما ضيعتني)- رواه الطبراني من حديث أنس